الجاحظ مؤرخـــــاً

ملاحظات نقدية حول معالجة الجاحظ للتاريخين الاموي والعباسي

د. فاروق عمر فوزي
قسم التاريخ / الاداب
جامعة بغداد

تمهيـــد :

ولد ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في البصرة حوالي سنة ١٦٠ هـ – سنة ٧٧٦ م ويختلف النسابة في اصله (١) والاغلب فان الجاحظ كان مولى ، عاش طفولته بالبصرة فاثرت في تكوينه العقلي واتجاهاته الفكرية . وحين رحل الى بغداد بدأت مرحلة جديدة من حياته حيث كانت شخصيته الثقافية قد نضجت وبدأت أثاره الخالدة تظهر الى الوجود .

و المعروف عن الجاحظ انه كان معتزليا في آرائه العقائدية وعباسيا في ميوله السياسية حيث كتب العديد من الرسائل مؤيدا للمعتزلة والعباسيين (٢) . وقد عاصر الجاحظ عظمة الدولة العباسية وأوج ازدهار الثقافة العربية الاسلامية وكان احد الاركان الاساسية في ذلك البناء الثقافي العتيد كما شهد العديد من الاحداث السياسية ابتداءاً من عصر هارون الرشيد حتى وفاته سنة ٢٥٥ هـ – سنة ٨٦٩ م نذكر منها نكبة البرامكة وآل سهل والحرب الاهلية بين الامين والمأمون والمحنة على عهد المأمون وأحداث بغداد ضد الجند الترك

---

(١) الخطيب : تاريخ بغداد : ج ١٢ ص ٢١٣ – ياقوت ، ارشاد ، ج ٧ ص ٣٠٣ .

(٢) عن كتبه ورسائله ، راجع هدى بهنام ، الموروث الجاحظي ، المورد المجلد السابع ١٩٧٨ ص ٢٧٧ – ٢٠٤ .

وحركات الشعوبية والزندقة والخرمية واخيراً لا اخراً تعاظم نفوذ القادة الترك في السياسة العباسية .

والمعروف عن الجاحظ لدى جمهرة المثقفين انه كان اديباً من الطراز الاول ولا أعرف ان احداً من المؤرخين المحدثين قد اعتبر الجاحظ مؤرخا ، بل ان قلة من المؤرخين استفادوا من كتبه ورسائله في كتاباتهم عن القرون الثلاثة الاولى في الاسلام . والواقع لم يكن الجاحظ مؤرخا بالمعنى المتعارف عليه بل انه سجل في العديد من كتبه ورسائله ملاحظات ذكية وقيمة عن احداث عصره أو تلك التي سبقت عصره . وهذه الملاحظات فيها دلالات تاريخية ذات اهمية كبيرة بالنسبة للمؤرخ المتمعن الناقد خاصة وان الجاحظ اهتم بالجدل السياسي الذي كان يدور بين الفئات الاجتماعية والفرق السياسية — الدينيـــة في ذلك العصر .

وللجاحظ بعد ذلك منهج في تجريح الخبر التاريخي وتعديله ذكره في مواضع عديدة من رسائله : فهو يرى أن على المؤرخ ان يكون موضوعيا في معالجته لوجهات النظر المتباينة فيقول : (٣)

« واعلم ان واضع الكتاب لا يكون بين الخصوم عدلا ولاهل النظر مألفاً حتى يبلغ من شدة الاستقصاء لخصمه مثل الذي يبلغ » .

الا ان الجاحظ لم يعتمد هذا المنهج دائماً في كتاباته بل دافع عن وجهة النظر التي يعتقد بها . . فقد دافع عن سياسة الخلفاء العباسيين كما دافع عن نهج المعتزلة الفكري والسياسي . ويظهر أثر الدوافع السياسية والاعتبارات الشخصية والنظرة العقائدية وراء العديد من الرسائل التي ألفها .

---

(٣) الجاحظ ، العثمانية ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢٨٠ .

على ان ذلك كله لايعني بأن الجاحظ سخر قلمه لخدمة البلاط العباسي بل على العكس فقد كان يدافع عما يؤمن به عن عقيدة واخلاص والا لما ظهرت كتاباته قويه الحجة بليغة اللسان . ولابد من الاشارة الى ان الجاحظ كان يذكر اراء خصومه وعقائدهم باسهاب ووضوح ثم يجادلهم عليهم ويفندها ويدحضها (٤) .

---

(٤) ان ذكر الجاحظ للمذاهب واراء الفرق باسهاب وموضوعية حتى يبدو وكأنه مؤمن بها ثم رده عليها وتفنيدها باسلوب من السخرية والنقد اللاذع جعل بعض خصومه ينالون منه ويشهرون به واصفين اياد بالتكون والغموض ولكن الجاحظ يرد على احدهم قائلا :

« وعبتني برسائلي الى شميات واحتجاجي فيها واستقصائي معانيها وتصويري لها في احسن صورة واظهاري لها في اتم حلية . وزعمت اني قد خرجت بذلك من حد المعزلة الي حد الزيدية ومن حد الاعتزال في التشيع والاقتصاد فيه الى حد الاشراف والافراط فيه . وزعمت ان مقالة الزيدية خطبة ومقالة الرافضة وان مقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية » .

ويقول الجاحظ في مناسبة اخرى :

« وعبتني بحكاية قول العثمانية والضرارية وانت تسمعني اقول في اول كتابي : وقالت العثمانية والضرارية كما سمعتني اقول : قالت الرافضة والزيدية فحكت علي بالنصب لحكايتي قول الثانية – فهلا حكمت علي بالتشيع لحكايتي قول الرافضة ، وهلا كنت عندك من الغالية لحكايني حجج الغالية ، كما كنت عندك من الناحية لحكايتي قول الناصبة . وقد حلينا في كتابنا قول الاباضية والصفرية كما حكينا قول الازارنة والزيذية .... والا كنا عندك من الخارجية كما صرنا عندك من الضرارية والناصبة » زاجع الجاحظ ، الحيوان ، ج ١ ص ٧ و ص ١١ – ١٢ .

الجاحظ والعروبـــة :

كان الجاحظ على رأس النخبة المثقفة المعروفة بحبها للعرب وودفاعها عن العروبة وتراثها (٥) في مطالع العصر العباسي . وقد دفعت هذه الحقيقة بعض الكتّاب المحدثين الى اعتباره من اصل عربي . يقول السندوبي (٦) :

« اذ لو كان في دم الجاحظ شيء قليل او كثير من دم
الاجناس غير العربية لرأيناه على رأس الشعوبيـــة
ولكنا نرى الجاحظ في كتبه وفي كل ماروي عنه شديد
العصبية للعرب ».

وفي اعتقادنا ان الجاحظ في دفاعه عن العروبة كان انسانياً كالعروبة نفسها (٧) فهو يهاجم العصبية العرقية العنصرية (٨) المتزمتة التي لم تكن يوما ما من سمات العربي حيث يقول :

« ... ثم قرنوا بذلك العصبية التي هلك بها عالم بعد
عالم والحمية التي لاتبقي ديناً الا افسدتـــــــه ولا
دنيا الا اهلكتها وهو ماصارت اليه العجم مـــــــن
مذهب الشعوبيـــة » (٩) .

---

(٥) العثمانية ص ٤٠

(٦) السندوبي ، رسائل الجاحظ ، ص ٢٩٩ – ٣٠٠

(٧) الجنحظ ، رسائل ، طبعة فان فلوتن ، ليدن ١٩٠٣ ، ص ١٢٢ – ١٢٣

(٨) الحيوان ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ تحقيق عبد السلام هارون ١٩٦٥ .

(٩) الحيوان ، ج ٥ ، ص ٣٢٨ .

وحيث يتكلم الجاحظ عن العرب يتكلم بيقين المتثبت المقتنع حيث يقول:

« وأنا أقول في هذا قولا وأرجو أن يكو ن مرضيا ولم أقل أرجو لاني اعلم فيه خللا ولكني اخترت اخذت باداب وجوه اهل دعوتي وملتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي وهم العرب»(١٠)

الجاحظ وعروبة الدعوة العباسية :

يعبتر الجاحظ من اوائل الكتاب الذين تعرضوا لموضوع الدعوة العباسية على ان المؤرخين المحدثين لم ينتبهوا الى ملاحظاته الدقيقة الا في فترة متأخرة . فالجاحظ من أوائل الذين اشاروا الى استقرار العرب في قرى خرسان حيث يقول في باب أثر البيئة على الناس :

« وقد نرى الناس ابناء الاعراب والاعرابيات الذين وقعوا الى خراسان فلاشك انهم علوج القرى » (١١)

وهذه الاشارة المقتضة من الجاحظ تؤكد سكن العرب في القرى وامتزاجهم بالسكان المحليين وهكذا ينكشف خطأ المؤرخين الذين اعتبروا اصطلاح « سكان القرى » الذى يتكرر في روايات الطبري وغيره بانه يعني العجم من اهل خراسان الذين ساندوا الدعوة العباسية .

كما وان الجاحظ يعتبر من الاوائل الذين نبهوا الى ان اصطلاح « اهل خراسان» ليس اصطلاحا عرقيا بل حضاريا . فالاصطلاح لا يعني العجم من السكان ذلك الاقليم بل يعني العرب وغير العرب المستوطنين هناك ولذلك فهو يعتر الدولة العباسية دولة خراسانية ويعتبر الخليفة المنصور من اهل خراسان حين يقول:

« ولو ان أهل خراسان حفظوا على انفسهم ووقائعهم في اهل الشام وتدبير ملوكهم وسياسة كبرائهم ... لكان فيما قال

---

(١٠) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٣٦٧ .

(١١)) فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية بيروت ١٩٧٠ ، ص ١٧٥ .

المنصور وما فعل في أيامه وأسس لمن بعده ما يفي بجماعة ملوك بني مروان » (١٢)

وحيث يتكلم الجاحظ عن القوة المحركة في الدعوة العباسية يؤكد على العرب فيقول : (١٣)

« وهل أكثر النقباء الا من صميم العرب ومن صليبة هذا النسب كأبي عبد الحميد تحطبة بن شبيب الطائي وابي محمد سليمان بن كثير الخزاى وابي نصر مالك بن الهيثم الخزاعي وابي داود خالد بن ابراهيم الذهلي وكأبي عمر لاهز بن قريظ المزني وابي عتيبة موسى بن كعب وابي سهل القاسم بن مجاشع المزني . ومن كان يجري مجرى النقباء ولم يدخل فيهم مثل مالك بن الطواف المزني » .

وحين يتكلم الجاحظ عن احداث الثورة العباسية بعد وصول الثوار الى العراق والشام يقول :

« وتفاخر العرب في قتل رجالات الدولة الاموية مثل مروان بن محمد وكذلك هزيمة ابن هبيرة وقتل ابن ضبارة وبناته بن حنظلة » .

بهذه الملاحظات القليلة كشف الجاحظ عن حقائق مهمة تتعلق بالثورة العباسية ولو أن من كتب من مستشرقي ومؤرخي القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين قد انتبهوا الى هذه الملاحظات لما وقعوا في أسار التفسير العنصرى للثورة ولما ابرزوا دور الفرس وغمطوا دور العرب حيث قادهم هذا التفسير الى تخريجات خاطئة عن مطالع العصر العباسي ذلك لان الخطأ في البداية يقود الى الخطأ في النهاية .

---

(١٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، القاهرة ١٩٦٨ ، تحقيق عبد السلام هارون ج ٣ ص ٢٦٦ .

(١٣) الجاحظ ، الرسائل ، (مناقب الترك) ج ١ ص ٢٢ .

(١٤) البيان والتبين ، ج ١ ص ٢٢ — ٢٣ .

الجاحظ والمجتمع العباسي :

وصف الجاحظ دولة بني العباس بأنها . « اعجمية خراسانية » وقد استنتج بعض المؤرخين المحدثين من تلك العبارة استنتاجات بعيدة فأكدوا على ان انتصار العباسيين يعني انتصار الفرس وان العصر العباسي الاول هو عصر النفوذ الفارسي .

وفي اعتقادنا ان هذه الاستنتاجات بعيدة عن واقع الحال ومبالغ فيهـــا وان الجاحظ لم يرد بها هذه التفاسير والتي وضعها المؤرخون المحدثون في فمه . وقد اشرنا سابقا بأن اصطلاح « اهل خراسان » لايعني في نظر الجاحظ العجم فقط بل العرب أيضا من اهل خراسان . ويبدو ان ما عناه الجاحظ هو تغلغل المظاهر الحضارية الاعجمية في المجتمع العباسي بصورة أوسع مما كانت عليه في عهد الامويين . واذا ما تمعنا في الخارطة البشرية لسكان بغداد ادركنا ما يعنيه الجاحظ ذلك ان الجماعات التي استوطنتها كانت مزيجا من العناصر العربية والاعجمية . والامر المهم هو ان هذه الفئات كانت ترتبط برباط واحد يشدها الى الدولة الجديدة الا وهو رباط الولاء للخليفة ودولته لا الولاء للقبيلة او العنصر أو الاقليم .

وقد اشرنا سابقا الى الاهمية التي اعطاها الجاحظ للعرب من اهل خراسان وغير خراسان في الدولة الجديدة واختلافه في ذلك عن بعض الروايات ذات الاصل الفارسي من الدينو رى (الاخبار الطوال) وحمزة الاصفهاني (تاريخ ملوك الارض) وكذلك الروايات التي دستها الشعوبية في كتب الادب (١٦).

ومن نفس المنطلق الانساني الحضارى غير العنصرى اعتبر الجاحظ . خلافا لغيره من الكتاب ، فئة الموالي في العصر العباسي فئة لا تشكل تكتلا عنصريا فارسيا أو أعجميا بل فئة مزيجة من اجناس مختلفة عربية أو عجمية

---

(١٥) المصدر نفسه ، ج ٣ ص ٣٦٦ .

(١٦) حول الموضوع ، راجع فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية (المقدمة) بيروت ١٩٧٠ .

تنظر الى رابطتها بالخليفة أو السلطة على انها اقوى من الانتماء العنصرى أو الاقليمي أو القبلي . يقول الجاحظ :

« وكان المنصور و محمد بن على و علي بن عبد الله يخصون مواليهم بالمواكلة والبسط والايناس لا يبهرجون الاسود لسواده ولا الدميم لدمامته ... ويوصون بحفظهم أكابر أولادهم»(١٧)

وهكذا اصبحت فئة الموالي بمرور الزمن كتلة تحس بكيانها المستقل تجمعها مع بعضها رابطة المصلحة والهدف والولاء المشترك وقد ادرك الجاحظ هذه الحقيقة فاشار الى ان كتابه الموسوم (العرب والموالي (يختلف عن كتابه الموسوم (العرب والعجم (، ويدافع الجاحظ م عن كتابيه أمام أحد نقاده الذي اتهمه بالتكرار فيقول بأن الفرق بين العرب والموالي هو ليس كالفرق بين العرب والعجم . وينقل الجاحظ وجهة نظر كتلة الموالي القائلة بانهم ليسوا من العجم وليسوا من العرب ولكنهم افضل مرتبة وامتيازات منهما بسبب رابطتهم الجديدة بالإلاط العباسي ولادارة والجيش . (١٨)

ولقد رفض الجاحظ فكرة العنصر كمعيار لتصنيف المجتمع العباسي واعتبر البيئة والثقافة واللغة والولاء عوامل اساسية لذلك التصنيف . وعلى هذا الاساس اعتبر السجاحظ الموالي عربا وضرب الامثلة على العديد من غير العرب الذين فاقوا العرب فصاحة وبلاغة وثقافة باللغة العربية وادبها (١٩).

ويشير الجاحظ الى فئة اخرى ضمن قئات المجتمع العباسي وهم الابناء او ابناء اهل خراسان وبمعنى آخر انهم احفاد اهل خراسان الذي ثاروا ضد الامويين . ويوضح الجاحظ الترابط الوثيق بينهما فيقول على لسان الخراساني :

---

(١٧) الجاحظ ، رسائل الجاحظ (مناقب الترك) ص ٢٣ – ٢٤ .

(١٨) فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ج٢ ص ٥٤ فما بعد .

(١٩) راجع مثلا ، البيان والتبين ، ج ١ ، ص ١٣٦ .

« اننا النقباء وابناء النقباء » (٢٠)

ثم يقول على لسان النبوى :

« انا اصلي خزاسان وهي مخرج الدولة ومطلع الدعوة وفرعي بغداد وهي مستقر الخلافة والقرار بعد المولة وفيهـا بقيت رجال الدعوة وابناء الشيعة (العباسية) وهي خراسان العراق وبيت الخلافة وموضع المادة » (٢١)

وقد اثبتت التجارب وقوف الابناء الى جانب الشريعة العباسية في البراعة ضد المعارضة وكذلك في الحرب الاهلية بين الامين والمأمون ويؤرخ الجاحظ احداث الحرب الاهلية وفخر الابناء بمواقفهم الباسلة مع الخليفة الامين (٢٢)

« ولنا في انفسنا مالا ينكر من الصبر تحت ظلال السيوف القصار والرماح الطوال . ولنا الصبر على الجراح وعلى جر السلاح » .

ويتكلم الجاحظ في مناسبات عديدة عن السودان ، بل انه خص السودان برسالة (٢٣) فريدة من رسائله العديدة . ولعل في نشأته بالبصرة حيث يكثر السودان والعبيد القادمين من شرقي افريقيا للعمل في كسح السباخ ودور في هذا . بل ان بعضهم (٢٤) يذهب الى ان اهتمام الجاحظ بالسودان يعود الى ان اصله من شرقي افريقيا ، وليس هناك ما يدفعنا الى تأييد هذا الرأى الذى ليس له ما يبرره أو يسنده في رواياتنا التاريخية بل ان المنطق التاريخي يؤكد بأن اهتمام الجاحظ بالسودان يعود الى اسباب اجتماعية ودوافع سياسية . وعلينا ان نتذكر

---

(٢٠) راجع فاروق عمر ، العباسيون الا وائل ج ٢ ، ص ٦١ .

(٢١) نفس المصدر السابق .

(٢٢) فاروق عمر ، العباسيون الا وائل ، ج ٢ ص ، ٦١ .

(٢٣) الجاحظ السودان على البيضان ، طبعة ثان فلوتن ، ليدى ، ١٩٠٣ .

(٢٤) شارد بلات ، الجاحظ ، ترجمة الكيلا ني ، دمشق ١٩٦٥ ، ص ٩٦ .

بأن اعداد العبيد والسودان كان كبيرا في المجتمع العباسي وانهم شغبوا في البصرة في عصر المنصور وساندوا حركات اخرى ضد السلطة . كما وان السودان والزنج كانوا يشكلون فرقة في الجيش العباسي . واخيراً لا آخراً فان خطرهم بدأ يتزايد بتعاظم اعدادهم في جنوب العراق في اواخر حياة الجاحظ .

وشهد عصر الجاحظ تزايد عدد الترك في المجتمع فقد جند المعتصم وهو رجل عسكري بالدرجة الاولى عددا كبيرا من الترك في الجيش . وقد أشار الجاحظ الى الترك كوحدة عسكرية ضمن وحدات الجيش ، كما واعد رسالة عن فضائل الترك سماها (مناقب الترك) وقدمها للخلافة العباسية ولا شك ان تأليفها كان لاغراض سياسية محضة منها تهيئة المناخ السياسي الملائم لكي يتقبل المجتمع عامة والجند فى الوحدات الاخرى خاصة الترك بين ظهرانيهم واقناعهم بأهمية وجودهم وفضائلهم والحاجة لخدمتهم . ويشير الجاحظ الى انه كتبها بروح حيادية موضوعية :

« اجتنب فيها مذاهب الجدال والمراء واستعمال الهوى»(٢٥)

كما وان هدفه حسم الموقف المتأزم بين الجند الترك والفئات المناهضة لهم والتأليف بين قلوبهم وارضاء الجميع . وحين يقارن الجاحظ بين الترك والخراسانية يؤكد على الفارق الحضارى فالخراسانية حضر مستقرون والترك بدو متنقلون . وهؤلاء الاخيرون هم الذين استخدمهم المعتصم الذي كان كما يقول الجاحظ :

« اعرف الناسس بهم حين جمعهم واصطنعهم » (٢٦)

وحين يريد الجاحظ ان ينبه الخلافة العباسية الى خطر الترك وضرورة الحذر من تحركاتهم يقارنهم بالخوارج فيرى بين الفئتين صفتين متميزتين

(٢٥) الجاحظ ، رسائل ، (مناقب الترك) ج ١ ص ٣٠ .

(٢٦) المصدر السابق .

هما الخشونة والشجاعة والبداوة أولا والخطار على السلطة ثانيا . وقد كان تحذير الجاحظ في محله حيث تفاقمت خطر الترك في اوخر أيامه ! ! .

الجاحظ والحركات الدينية ـ السياسية :

أشرنا فيما سبق بأن الجاحظ كان معتزليا في عقيدته وموواليا للعباسيين في نهجه السياسي وعلى ذلك فقد عادى اعداء المعتزلة والعباسيين ووالى انصارهم وكتب كتبا ورسائل عديدة في ذلك .

لقد اطرى الجاحظ على النهج السياسي والفكرى للعباسيين في رسالته (في العباسية) (٢٧) وأيد مذهبهم ولم ير الخروج على الدولة أو استعمال السيف ضدهم وهو يدافع عن سياسة الائمة العباسيين قائلا : (٢٨)

« وهكذا تدبير الخلفاء ولكن أكثر الناس
لايعلمون ولو كان اذا لم يفهموا عن الائمة
لم يعترضوا عليهم ولم يخطئوهم ولم يجهلوهم
كان ايسر »

ولما أمر الخليفة المأمون العلماء والمفكرين ان يكتبوا في الامامة استجاب الجاحظ لطلبه ولما اتمه رفعه الى المأمون . ويقول الجاحظ في ذلك :

« لما قرأ المأمون كتبي في الامامة فوجدها على ما أمر به وصرت اليه ، وقد كان امر اليزيدى (ابو محمد يحى بن بن المبارك بن المغيرة) بالنظر فيها ليخبره عنها ، قال لي : قد كان بعض من يرتضى عقله ويصدق خبره خبرنا عن هذه الكتب باحكام الصنعة وكثرة الفائدة فقلنا له : قد تربى الصنعة على العيان ، فلما رأيتها رأيت العيان قد اربى على الصنعة فلما فليتها اربى الفلى على العيان كما اربى العيان على الصنعة.

---

(٢٧) الجاحظ رسائل ، تحقيق السندوبي ، ص ٣٠٠ – ٣٠٣ .
(٢٨) الجاحظ ، العثمانية ، ص ٢١٥ .

وهذا كتاب لا يحتاج الى وجود صاحبه ولا يفتقر الى المحتجين عنه قد جمع استقصاء المعاني واستيفاء جميع الحقوق ، مع اللفظ الجزل والمخرج السهل فهو سوقي ملو كي وعامي خاصي » (٢٩)

ويؤيد الجاحظ وجهة النظر العباسية القائلة بان الخلافة سلطان الله في ارضه فسلطته مقدسة لانها من سلطة الله فيقول :

« فلسنا نشك ان الامام الاكبر بخصائصه من التوفيق والعصمة والتأييد لم يكن الله ليجلله باسم الخلافة ويحبوه بتاج الامامة باعظم نعمة واسبغها .... ثم وصل طاعته بطاعته ومعصيته بمعصيته الا ومنه من الحلم والعقل مالا يبلغه ذى فضل ولا حلم ذى حلم » (٣٠)

وقد اكد الجاحظ وجوب الامامة فقال في رسالة استحقاق الامامة :

« وان اول احكام الدين المبادرة الى اقامة امام المسلمين لئلا يكونوا نشراً ولئلا يجعلوا المفسدين علة وسببا » (٣١)

وللجاحظ ملاحظات عديدة يدافع بها عن العباسيين ويثني على منجزاتهم في كتبه ورسائله ، كما دافع الجاحظ عن عقيدته الاعتزالية التي كانت في عصره عقيدة الخلافة العباسية كذلك عند عصر المأمون حتى نهاية عصر الواثق . واشترك الجاحظ في محنة القول بخلق القرآن فكتب رسالة في خلق القرآن ورد على المغارضين في رسالته (الرد على المشبهة) وثالثة في (نفي التشبيه) وخامسة في (فضيلة الكلام) . وفي هذه الرسائل نجد الجاحظ ينزل المعتزلة منزلة خاصة فيقول :

---

(٢٩) البيان والتبين ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .

(٣٠)) فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ج ٢ ص ٨٣ .

(٣١) المصدر السابق .

« لولا مكان المعتزلة لهلكت العوام في جميع النحل » (٣٢)

ثم يخصص اصحاب النظام بين فرق المعتزلة فيقول (٣٣) :

« لولا اصحاب ابراهيم وابراهيم (النظام) لهلكت العوام من المعتزلة فاني اقول : انه قد انهج لهم سبلا ونثق لهم اموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة »

والمعروف ان للجاحظ اتباعاً من المعتزلة تكونت منهم فرقة سميت

المنفعة وشملتهم بها النعمة »

والمعروف ان للجاحظ اتباعاً من المعتزلة تكونت منهم فرقة سميت (الجاحظية) . وفي كل ذلك اتبع الجاحظ اسلوبه الذى يتميز به وهو ابداء آراء خصومه ثم تفنيدها وهو يقول مدافعا عن ذلك : (٣٤)

« وعبت كتابي في خلق القرآن كما عبث كتابي في الرد على المشبهة وعبت كتابي في القول في اصول الفتيا والاحكام كما عبث كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه » ثم يستمر الجاحظ عارضا حججه واضحة مؤيدة محكمة .

ينقل الجاحظ على لسان محمد بن علي بن عبد الله بن العباس امام الدعوة العباسية ومنظمها رأيه في الامصار حيث يقول عن البصرة انها عثمانية وعن الكوفة انها شيعية علوية وعن الشام مروانية وعن الجزيرة الفرائية خارجية صرورية (٣٥) . وقد تناول الجاحظ هذا الفرق في كتاباته : اما الشيعة العلوية فقد فرق الجاحظ بين المعتدلين والغلاة وصب جام غضبه على الاخيرين منهم .

---

(٣٢) الحيوان ، ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٣٣) المصدر نفسه .

(٣٤) الحيوان ، ج ١ ص ٩ .

(٣٥) رسائل ، (مناقب الترك) ج ٢ ص ١٦ .

ولعل في ذلك انعكاس لوجهة نظره الانعذالية التي تلتقي مع بعض المذاهب الشيعية المعتدلة أولا وتأييد لسياسة السلطة العباسية التي حاولت في عدة مناسبات تبني سياسة التوفيق والمهادنة مع الشيعة المعتدلين من حسنيين وحسينيين وخاصة في عهد ابي العباس والمهدي والمأمون والمعتصم . وتأتي رسالته في أمر الحكمين وفي تصويت رأى أمير المؤمنين وفي اثبات الامامة لامير المؤمنين علي بن أبي طالب ضمن هذا الاطار . على ان الجاحظ لم يهادن الغلو عند بعض فرق الشيعة وفي كتاب العثمانية ورسالته في الزيدية والرافضية انتقد الجاحظ بشدة الخصائص الخارقة التي ينسبها الغلاة للائمة . (٣٦) وفي رسالته لتفضيل بني هاشم على عبد شمس يؤكد الجاحظ بالدرجة الاولى على العباسيين من الهاشميين ويظهر بمظهر المدافع عن العلويين عند مقابلتهم بالامويين .

اما الخوارج (٣٧) فقد وصفهم الجاحظ بالمروق ، ونبه الدولة في أكثر من مناسبة الى خطرهم على انه مغرم باخبار شعراء الخوارج ونقل الكثير من اخبارها !!

وتناول الجاحظ التشيع لمعاوية والامويين في أكثر من رسالة وكتاب . فقد استعرض في كتاب (العثمانية) الخصومة بين العلويين والامويين وانتقد الطرفين نقداً لاذعاً . وفي رسالته عن امامة معاوية بن ابي سفيان (٣٨) صور الجاحظ معاوية في صورة الخارج على الاسلام . وحين يتعرض الجاحظ الى (النابته) ((٣٩) ، وهم انصار الامويين في العصر العباسي ، في رسالة خاصة لا يختلف عن غيره من المؤرخين الذين كتبو عن الامويين في الفترة العباسية فشوهوا صورتهم وطمسوا انجازاتهم . على أن هذه الصورة المشوهة قصدا

---

(٣٦) الحاجري ، الجاحظ ، ص ٢٠٦ .

(٣٧) البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٥١٢ .

Fried Lander, J.A.O.S., XXIX, P. 148

(٣٩) النابته ، نشر فان فلون ، سنة ١٨٩٩ ، باريس .

لم تنطل على كل الناس فمازالت هناك فئة في المجتمع العباسي تحترم ذكرى الامويين وتذكر مكاسبهم ولذلك يقول الجاحظ :

« والله لبنو مروان في غير دولتهم اعظم كبرياء من بني العباس في دولتهم » (٤٠)

وقد ازعج الجاحظ ان تستمر النابتة في موالاتها للامويين في دولة بني العباس فاتهمهم بالتمادي في الخطأ لرفضهم ادانة الامويين .

والمعروف عن الجاحظ انه شغف بخصلتين رئيسيتين من خصال العرب وهما الفصاحة والكرم وحين عجز الجاحظ عن اتهام الامويين باللحن أو القصور في اللغة حيث يمتدح العديد من خلفاء الامويين وولاتهم لبلاغتهم وينقل الخطبة البتراء لزياد بن ابيه التي أكد فيها حق الامويين بالخلافة و طاعتهم لانهم خلفاء الله ورسوله ، راح الجاحظ يكيل التهم للخلفاء الامويين واصفا اياهم بالبخل والشراهة ! ! وينقل روايات شاذة غير متواترة عن مأكلهم ومشربهم وحفلات انسهم ومجونهم . (٤١) وحين تكلم الجاحظ عن ظاهرة التسري بالجواري والغلمان في رسالته (الجواري والغلمان) ورسالته (الفتيان) (٤٢) تلك الظاهرة التي شاعت في العصر العباسي لم يترك هذه الظاهرة تمر دون ان يذكر الامثلة المختارة من العصر الاموى وليس العباسي ! ! ثم يطعن الجاحظ في جميع خلفاء بني أمية في هجوم لاذع فيقول :

« ان نساء خلفاء بني العباس أكثر معروفا من رجال بني أمية ولو ذكرت معروف ام جعفر وحدها لاتى ذلك على جميع صنائع بني مروان » (٤٣)

---

(٤٠) فضل هاشم على عبد شمس ، ٢٣٢ – ٢٣٣ .

(٤١) راجع : النابتة ، ص ١٧ ، الحيوان ج ١ ص ١٨٠ ، البخلاء ص ٣٠ ، ١٤٩

(٤٢) عن القيان راجع (ثلاث رسائل) نشرها فنكل ، القاهرة ١٩٢٦ – وعن مغامرة الجواري والقلمان مجموعة رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون سنة ١٩٦٥ .

(٤٣) فضل هاشم على عبد شمش ، ص ٢١١ .

ثم يقول : (٤٤)

« كان عبد الملك جباراً لايبالي ما صنع وكان الوليد مجنونا وكان سليمان همه بطنه وفرجه وكان عمر أعور بين عميان »

ويتهم الجاحظ بني أمية بالكذب : «« بنو أمية كذابين فما اولاهم بالكذب ... » (٤٥) ولم يفصح الجاحظ عن مواقع الكذب عندهم ولعله في ذلك يشير الى الدعاية السياسية الواسعة النطاق التي نظمها الامويون من اجل كسب الاتباع الى قضيتهم فقد استخدموا القصاص للدعاية السياسية يعقدون مجالسهم في المساجد والمعسكرات يدعون للدولة الاموية وينفرون من اعدائها . كما استخدم الامويون الشعراء للدعاية . وكان الشعراء بمثابة الصحف يدعون الناس لتأييد الخلافة بالاقناع والمحاججة . واتهم الجاحظ الامويين بأنهم اغتصبوا الخلافة وحولوها الى « ملكا كسرويا وغصباً قيصرياً » (٤٦) .

من الواضح ان الجاحظ لم يستخدم الاسس النظرية التي وضعها نصب عينيه في كتاباته بل اهملها حيث كتب عن الامويين . وبذلك انحرف الجاحظ عن منهجه في التثبت والاستقراء الذى اكد عليه في أكثر من مناسبة .

على اننا يجب ان نستدرك فنقول بان الجاحظ لم يكتب تاريخا لبني امية أو لغيرهم ، كما فعل الطبرى أو اليعقوبي ، بل لم يكن قصده أن يؤرخ لتلك العصور ولذلك فنحن لا نتوقع منه ان يلم بمنجزات الامويين واعمالهم في ميدان السياسة والادارة والعمل في مصالح الدولة ومصالح الناس حيث قيم اعمالهم واحد من الذين عاصروهم فأجاب حين سأله الخليفة الرشيد العباسي عن الامويين فقال بجرأة وشجاعة : « كانوا أنفع للناس» !! (٤٧) . ومع ذلك فقد سقط الجاحظ في ملاحظاته عن الامويين فريسة تحيزاته

---

(٤٤) المصدر السابق ص ٢١١ .
(٤٥) المصدر السابق ٢٠٣ .
(٤٦) النابته ، ص ١١ (ضمن الرسائل) الجزء الثاني . تحقيق عبد السلام هارون .
(٤٧) راجع فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ج ١ ص ١٥٢ .

السياسية والعقائدية وتخللى عن وجبه كمؤرخ أو كاتب حيادي ليلعب دور الخصم المعني ، فكان عليه ان يدرك بأن تاريخ الامويين كتب من قبل اعدائهم أولا وكان عليه وهو المعتزلي ان يحكم عقله ومنطقه ولا يقبل الروايات الشاذة المغرضة ثانياً .

ولعل المؤرخ المحقق يستطيع ان يتحسس ارتباك الجاحظ في كتاباته عن الامويين ، وفي تصورنا ان ذاك ناتج عن ادراك الجاحظ بأنه بجانب الحـــق والصواب . وفي هذا الشأن يقول البروفسور شارل بلات : (٤٨)

« ان الجاحظ بعد ان ذكر نماذج من فصاصة
الامويين انقطع كلامه ثم ان لهجته تنبىء عن
ارتباكه فنستدل عندئذ على كذبه »

وجرياً على منهجه سرد الجاحظ في مواضع عديدة وجهة نظر الامويين وما يفخرون به ثم ناقشهم ورد عليهم (٤٩) ، وهذا واضح في رسالتيه في الثمانيه وتفضل هاشم على عبد شمس .

وفي مجال آخر يعترف الجاحظ بكثرة الاخبار في التاريخ الاموي وقلتها عن مطالع العصر العباسي ويبررها تبريراً يدل على اعجابه بما حفظ من مآثر الامويين حيث يقول : (٥٠)

« دولة بني مروان عربية أعرابية في اجناد شاميـــــة
والعرب اوعى لما تسمح واحفظ لمآثرها ولها الاشعار

---

(٤٨) بلات ، الجاحظ ، ترجمة الكيلا ني ، دمشق ١٩٦٥ ص ٢٠٢ .
(٤٩) البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٢١٧ – ٢١٨ .
(٥٠) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٦٦ .

التي تقيد عليها مآثرها وتخلد لها محاسنهـــــــا
وجرت من ذلك في اسلامها على مثل عادتهـــــا
في جاهليتها فبنت بذلك لبني مروان شرفـــــــاً
كثيراً ومجداً كبيراً وتبريراً لايحصى».

وبعد ان يقول الجاحظ (٥١) ذلك بوضوح وصراحه يستدرك متملقاً العباسيين تملقاً واضحاً :

« ... ان فيما قال المنصور ومافعل في ايامه واسس
لمن بعده مايفي بجماعة ملوك بني مروان » .

ويعترف الجاحظ بأن العباسيين طمسوا آثار الامويين فيقول :

« هدم اصحابنا بناء مدن الشامات لبني مروان » (٥٢)

واشار الجاحظ الى تحفظ الخلفاء الامويين في مجالس سمرهم فقال :

« اما معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام
ومروان بن محمد فكان بينهم وبين الندماء سكارة وكان
لايظهر احد من الندماء على مايفعله » .

والجاحظ معجب بخطب الامويين ووصاياهم وارائهم ويشير اليها في اكثر من موضع (٥٣) . ويمتدح الجاحظ في اشارة عابرة عبد الملك بن مروان ووالية الحجاج فيقول : (٥٤) « لم يكن مثل سياسة عبد الملك والحجاج الي ان ملك المنصور » .

---

(٥١) الحيوان ، ج ١ ص ٧٣ .

(٥٢) التاج ، (منسوب للجاحظ) ص ٣٢ طبعة القاهرة ١٩١٤ .

(٥٣) البخلاء ، ص ١٥٠ – البيان والتبيين ، ج ١ ص ١٦٤ ، ٢٤١ – ٢٤٢ ، ٤٣ ، ٦٦ . ج ٢ ص ٢٧١ ، ٣٦١ ، ٢٨٠ ، ٣١٣ . ج ٣ ص ٥٨٧ ، ٥٩١ .

(٥٤) التاج (المنسوب الجاحظ) ص ١٦٩ .

« ولو تهيأ المتكلفين منهم مثل صرامة هشام لازدجر من به حياء منهم ولقلت النفقة والكلف » (٥٥) .

وفي رواية اخرى يرويها الجاحظ ان المنصور كان معجبا بهشام بن عبد الملك وانه سمح لاحدهم ان يترحم على هشام امامه وذلك حين سأله عن بعض تدابير هشام ضد الخوارج (٥٦) . ويشير الجاحظ الى حزم مروان بن محمد آخر خلفاء الامويين وصلابته في احرج ايامه قبل سقوط دولته (٥٧) . ويمتدح الجاحظ سياسة بعض الولاة الامويين وحسن تدبيرهم أمثال مسلمة بن عبد الملك وزياد بن ابيه والمهلب بن أبي صغرة ويزيد بن المهلب (٥٨) . ويفاخر الجاحظ بالفتوحات الكبيرة التي حدثت في أيام الامويين على يد محمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي ويسميها « الفتوح العظام » (٥٩) .

واخيرا لابد من القول بان الجاحظ ، بصورة عامة ، فشل في معالجته تاريخ الاموى وهذا الفشل في نظرنا يعود الى ان اتخاذ موقف صحيح ازاء احداث التار يخ الاموى يستدعى موقفاً نظرياً صحيحا وخلفية عقائدية وسياسية لاتتعارض مع النهج الاموي أو على الاقل تقف موقفاً موضوعياً منه وهذا ما لم يتوفر الجاحظ بسبب تعارض عقيدته وميوله مع الامويين . والواقع ان الجاحظ لو اقتصر على مهاجمة التطرف الاموي المتمثل بالنابتة لكان في وضع اقوى ولما وقع في تناقض ولكنه هاجم الامويين ككل فوجد نفسه أمام مهمة شاقة اذ كيف يمكن التكلم سلبيا عن فترة شهدت منجزات تضاهي بل تفوق احياناً منجزات العباسيين في عصر قوتهم وازدهارهم . وكيف يمكن الجمع بين حب العرب والعروبة وبين التعرض للأمويين في آن واحد ! !

---

(٥٥) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

(٥٦) التاج ، ص ١١١ – ١١٢ .

(٥٧) المصدر السابق ص ١٧٥ – ١٧٦ .

(٥٨) راجع مثلا البيان والتبيين ، ج ١ ص ٣٨٠ ، ١٨٦ ، ٣٨٥ . النجلاء ص ١٢ ص ١٤٥ . ص ٢٠٤ الحجاب ص ٣٥ – ٣٦ ، ص ٧٧ .

(٥٩) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٢٩٠ – مفافرة الجوارى والقلمان ص ١١٧ – ١١٨ .

ولقد تطر ق الجاحظ كذلك الى خطر المانوية الجديدة في المجتمع العباسي والتي عرفت باسم (الزندقة) وكانت حركة منظمة نشرت كتب المانوية بأورق صقيلة واخراج بديع لكي تجتذب الناس الى قراءتها ويعلق الجاحظ على هذة الكتب قائلا :

« بأنها لا تفيد علماً ولا حكمة وليس فيها مثلا سائر ولا خير ظريف ولا صفة ادب ولا حكمة غريبة ولا فلسفة ولا مسألة كلامية » (٦٠) .

والمعروف عن الزندقة انها اخطر حركة تعرضت للاسلام وهددته وحاولت هدم المجتمع العربي – الاسلامي من الداخل ولذلك فانها والشعوبية صنوان مترابطان .

مفهوم الجاحظ للعنصرية والانسانية :

يعتبر الجاحظ أحد أهم منظري التفسير الانساني للعروبة في العصر العباسي ان لم يكن الاهم . وقد تعرض الجاحظ بقدر كبير من الاسنفاضة لمظاهر عديدة في الصراع الدائر بين العروبة والشعوبية . ولا بد من القول بادئ ذى بدء بان الموضوع – موضوع الصراع – لم يكن جديداً الا ان الجديد فيه هو الاسلوب والمنهج الذي اعتمده الجاحظ وبالتالي المنتوج الفكري المهم الذى صدر عنه ، ذلك المنتوج الفكري الذى تحول الى وثائق سياسية وايديولوجية وثقافية تنتسب الى الاحداث وتنسب اليها الاحداث ، وبمعنى آخر فان قراءة رسائل الجاحظ والنصوص العديدة في كتبه تتطلب من القارئ المتمعن الرجوع الى منابع تلك النصوص أي الفكر السياسي أو العقائدي أو الخلفية الاجتماعية والاقتصادية التي انطلقت منها تلك النصوص والملاحظات ، وهذا في نظرنا التاريخ بعينه الذي حاول الجاحظ معالجته .

---

(٦٠) راجع للمؤلف ، الزندقة ، آفاق عربية ، العدد ، ١٩٧ .